القاص سعيد حورانية 1929 – 1994 قراءة في السيّرة والإبداع

لم يتذكّر النُّقاد سعيد حورانية بعد رحيله، ولم ينل هذا الأديب المبدع حقّه من الدراسة، وهو القاص السوري ابن دمشق، عاش في أسرة دمشقية فقيرة، وفي حيّ "الميدان"، الذي اكتسب اسماً آخر "حيّ محمد الأسمر" نسبة إلى الشيخ المستنير، المناضل ضد الاستعمار الفرنسي، وقبله العثماني. وكان العقل المرشد للثوار وللوطنيين ومن قيادات الثورة السورية الكبرى. الوطني الغيور على مصلحة الوطن العليا. وما تزال ساحة الميدان تُسمّى باسمه.

ولد سعيد حورانية في العام 1929 وتوفي في 4/6/1994. يقول في مذكّراته: (أنا من بيئة ذات تركيبة دينية، وأبي شيخ مُهمّ، كان يحلُّ ويربط، بيئة دينية.

وعندما أصبح سعيد يعرف القراءة والكتابة والخطابة، وعمره ثلاثة عشر عاماً، كان الأشمر يُرسل في طلبه للترحيب بالوفود والزائرين القادمين من أحياء دمشق، ومن المحافظات السورية.

سعيد حورانية رجل فكاهة، يحبّ النكتة، عصبي، قصير القامة، سريع الحركة والأجوبة.. شجاع، لا يُهادن، جريء. يقول الحقيقة. يكره الانتهازي والوصولي، لا يأبه لأحد. عنيد. دخل السجون، وذاق مرارة المطاردة والملاحقة. عاش سنوات في موسكو، بعيداً عن أهله ووطنه. كشف عن شجرة عائلته. وقال: (إنَّها من أصل بدوي، قدمت إلى الشام من منطقة حوران. ولم يأتِ لقب "حورانية" عبثاً).

عملت عائلته في تجارة الحبوب، ثمَّ اشتغلت بالبورصة بعد الحرب العالمية الثانية. وعندما أعلن والده إفلاسه، ترك التجارة، وأصبح إخوته كَتَبة حسابات عند تُجَّار سوق الهال. ولم تكن المدارس كاليوم منتشرة في أحياء العاصمة، بل كانت محدودة جدّاً. وكانت الكتاتيب هي التي تُخرّج المتعلمين، والتي تؤسس المعارف لدى التلاميذ والشباب. وتلَّقى سعيد دروسه الأولى عن مشايخ "جامع الدقَّاق"، وبفضل الجامع نال شهادتي الكفاءة والثانوية، وتعلَّم الغناء والألحان. قرأ كُتب التراث مثل "خزانة الأدب" وروايات الجيب. وكان نهماً في القراءة. وفي طفولته المرفّهة كان مُدلّلاً، ينظر إليه أطفال الحيّ الفقراء بحسدٍ وغيرة، وبعد إفلاس والده، تحوَّل سعيد إلى عامل، يحصل آخر الأسبوع على أجرته أو كما يُطلق عليها في دمشق "بالأسبوعية"، ويقدّمها لأبيه كي يُخفّف عنه مصروف العائلة الكبير. وعمل سعيد في معمل "دياب للكبريت" لمدة سنتين. ونما

إحساسه بالطبقة التي ينتمي إليها. وتلاشت أحلامه التي رافقت مرحلة الطفولة، بأنّه سيعيش حياة رغيدة، سعيدة، وازدادت العلاقات التي تربطه مع العمال حميمية. وتجاوز تفكيره حدود الحيّ الضّيقة. وكانت هذه الخطوة بداية المشوار الحياتي الجديد المُختلف، بداية للتفكير الآخر المغاير للمألوف في البيئة المحافظة. بداية التفكير العميق بـ "آلية الحياة" الجديدة.

لم يكن سعيد حورانية ناقداً، بل قاصاً عن جدارة. يقول في هذا السياق: (أنا لست ناقداً، والنقد ليس ميداني). ويرى أنَّ النقد عمل غير سهل ومَنْ استسهله فشل فشلاً ذريعاً. ويدعم حديثه في إحدى الحوارات معه برأي أَعجبه للناقد غالي شكري: (لا يدّعي النقد أنّه يخلق الأدباء أو يقتلهم. النقد كالأدب فنٌّ قائم بذاته. وإذا كان الأدب يَسْتلهم مادته من الحياة، فإنَّ النقد يستلهم مادته من الأدب والحياة معاً. لذلك فهو لا يتعامل مع الأدب من موقع الخصوصية أو التواطؤ، بل من موقع النّدية والمشاركة في صنع الرؤية الإنسانية).

أجاب سعيد عن عديد الأسئلة الدائرة حول القصة القصيرة، وخصائصها الفنية، وربط بين الشكل والمضمون. وأنَّ القصة كجنس أدبي يتميز عن غيره من الأجناس الأدبية بعدّة خصائص هي:

1- قُدْرة القصة على امتلاك التصرّف بالزمن قُدرة لا محدودة.
2- إنَّ القصة القصيرة مضياف، ولا حاتم الطّائي، فهي تفتح صدرها لمختلف الأساليب، وتتكيَّف مع كلّ مُستجد. تسير دوماً على إيقاع العصر. تقبل لغة السرد البسيطة، وتتفاعل مع اللغة الشعرية المكثّفة، وتنسجم مع اللوحة الواقعية بمختلف أساليبها، وتتماشى مع الرمز وتتّسع حتى للتجريد.
3- لغة القصة القصيرة، لغة واسعة الصدر. وكلّ كاتب مُهمّ له طريقته ولغته الخاصة به، ولكن حذار إنّها قاسية، فهي لا تحتمل التكرار إلاَّ لوظيفة، ولا تحتمل الإنفلاش والإنشاء والهذيان. إنّها تتطلب التركيز الكامل، لا كلمة زائدة أو ناقصة، لا تَفَاصح ولا تسيّب، وإلاَّ اختلَّ الانسجام. إنّها أشبه بالقصيدة الشعرية الجيّدة الموزونة، مزهرية سهلة الخدش والكسر.
4- : مَرُكزة الحدث. كلّ الكلمات، كلّ الصُّور، كلّ الملاحظات الجانبية، يجب أن تخدم المركز، وتكون الأشعّة كلّها في اتجاه المحرق، وأيّ تسيّب، أي استطراد، أي انجراف

إلى جماليات غير موظفة أو طرائف أو فكاهات مغرية يُشتّت الانتباه، ويضعف الأثر، ويُربك الوعي ويُقلّل المَتعة

خلفيّة القصّة

لكل فرد من أفراد الأسرة دور، كأنَّ القاص أراد أن يؤرّخ لعائلته، وأن يُخصّص لها مجموعة قصصية، ويعطي لكل واحد حصّة ودوراً. وتظهر الأم في قصة "أخي رفيق" عندما تتدخل في الحوار الدائر بينهما، وهما يتشاوران للذهاب إلى المسبح، ولو نجح تدخلها لما حدث ما حدث، لكنّ الأخوين لم يستجيبا لها، ووافق سعيد أن يبقى في البيت، وينتظر "أم تحسين" الشيخة التي ستكتب له حجاباً، وتكبّسه. وفعل ذلك، وبعد انتهاء التكبيسة ترك أُمّه وأخذ الطريق مع رفاقه إلى بستان "البحصة".

وحدثت الفاجعة، ويغرق رفيق في بركة العرق سوس ويموت. وتبدأ المناحة والعويل. ورغم ما يجري، للقصة أبعاد ساخرة في بعض الصّور المدسوسة في طيات السرد الحكائي، عندما يرى سعيد إحدى القريبات تغرف الماء بفنجان وتصبّه في عينيها لتبدو باكية، لأنّها تعتقد أنّ الدموع مصدر وحيد للحزن والألم.

ويصف رفيق المتوفى وصفاً دقيقاً: (رأيتُ كومة بيضاء على السرير، وقد انتفخ وسطها، ونظرت إلى أبي الصَّامت، وأمي الباكية، وأخوتي المُطْرقين.. كانت عيناه مغلقتين ووجهه أصفر. وقد تلبّد شعره الجميل، ولكنّه كان لا يزال يبرق.. وجلستُ وأنا مطرق

لقد اختار الكاتب تيمات مناسبة، سطحية وعميقة، اجتماعية وسياسية. وتمكّن من تبئير الحدث في محرق واحد. وتحكَّم في العملية السردية، وكانت المفردات بسيطة بعيدة عن الاستسهال والإنشائية، وتشير الدلالة أنّه صاحب ذهن متفتّح، ويمتلك المفاتيح الفنيّة الحداثية، ومعرفة ما يجري بدقة في البيئة والمجتمع الذي يعيش في كنفهما.

وعنوان المجموعة، هو

- كيف يقضي الأطفال وقتهم بناء على الفقرة الأولى؟،
- الحوار في النص

- أهميته، دور الأمهات
- الإيمان بالشعوذة وأهمية ذلك
- خبر الموت كيف وقع على أذن سعيد وهل طرأ تحول على موقفه من الموت
- موقف الوالد والوالدة من الموت، إضافة إلى مواقف باقي أفراد الأسرة
- اللغة المستقاة من الأجواء الدينية، إقحام تعابير عامية والهدف من ذلك
- العلاقة التي تربط سعيد بأخيه وأين يظهر ذلك.

نماذج اسئلة

لاحظت الانتفاخ في جيبها..... النهاية"

- يولي الراوي في النص أهمية خاصة للقرعون. بين هذه الاهمية في هذا الموضع من السرد

الاجابة

القرعون هي حبّات بذور المشمش التي كان سعيد يحبّ جمعها ليلعب بها مع أترابه . وكان رفيق قبل غرقه وموته قد وعد أخاه سعيدا بأن يحضر له كثير من القرعون وعندما مدّ يده في جيب بدلة أخيه بعد موته وجد عددا كبيرا منها كانت الجيب منتفخة بالقرعون وهذا يدلّ على مدى الحبّ الذي كان يكنّه رفيق لأخيه الصّغير سعيد , وكأنّه لم ينساه حتّى في مماته فإحضار القرعون يمثّل جسر المودّة التي لم تنقطع بالموت.

2) يطغي على النص أعلاه استعمال الفعل الماضي، بين أهمية هذا الاستخدام في هذه القصة.

الاجابة:

يطغى استعمال الافعال الماضية على سائر القصّة ليدلّ على زمن حدث القصّة في الزمن الماضي حين كان الراوي في سن العاشرة ولكي يستعيد أحداثها كان لا بدّ من استعمال الافعال الماضية كما أنّ الافعال الماضية تشكّل ارتباط سعيد بأخيه رفيق فهو عندما كبر ما زال يتذكّر أخاه فكان لا بدّ من استعمال الافعال الماضية.

والافعال الماضية تخدم السّرد وتخدم عمليّة الاسترجاع الفنيّ للقصة التي حدثت في الماضي.

" قال أبي مرة ثانية..... النهاية"

3) ما هو رد فعل كل من الاب والأم تجاه موت ابنهما رفيق وما الذي يميز رد فعل كل منهما؟ وضّح معتمدا على الفقرة الأولى في الاقتباس.

الاجابة:

يمثّل رد فعل الاب على موت ابنه رفيق الايمان المطلق بقضاء الله " لا رادّ لقضائه , و " قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا فالاب على الرغم من حزنه الشديد يبدي صبرا وتجلّدا على المصيبة التي حلّت بهم في حين كانت الام على عكسه فهي تعاتب القدر وتظهر الجزع والحزن الشّديد على ابنها الميّت الامر الذي ينعكس في قولها: " الله لا يأخذ إلّا الطيّبين " وفي قولها "هذا ظلم " احتجاج على حكم القدر مما جعل الاب يقول لها: استغفري ربك وصلّ على النبي وإنّ الله مع الصابرين .

4) تمثل الفقرة الثانية في الاقتباس تحولا في نظرة الراوي الى موت الاخ. وضّح مبينا نظرته قبل وبعد هذا التحول

الاجابة :

كان الموت بالنسبة للراوي الشيّء المخيف المحزن ويمثّل الفقدان الكبير الذي حلّ به لكن بعد أن وقع نظره على برميل البريلكريم أصبح يحسّ بأنه الآن أكثر حريّة فلن يشاركه أحد في استعماله , كما أنّ أمّه ستكون منشغلة بحدث موت أخيه وستكون لاهية عنه ممّا يفسح أمامه مجالا للحريّة ليفعل ما يشاء دون رقيب.

من قصّة "أخي رفيق" لسعيد حورانية

قال أبي مرّة ثانية بصوت متهدّج:

- حُكم الله ولا رادّ لقضائه (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون).

فقالت أمي مندفعة:

- الله لا يأخذ إلا الطيّبين الممتازين.

فقال أبي غاضبًا:

يا أم توفيق استغفري ربّك، اللهمّ لا اعتراض على حُكمك.

فتابعت أمي كأنها لم تسمع:

- "نهلكُ بالولد" ونتعب به ونضع له دم قلوبنا ونفرش له ريف عيوننا فإذا كبر وصار... قصف الله عمره. هذا ظلم.. هذا..

الأسئلة:

- بيّن موقف كلّ من الوالدين ممّا حدث لابنهما.

الاجابة:

وردت الاجابة في سؤال رقم3 سابقا

- يوظّف الكاتب في النص أعلاه كلمات وتعابير قريبة من العامّية.

بيّن أهمية هذا التوظيف للنصّ.

الاجابة

التعابير العاميّة التي وردت في النّص تضفي واقعيّة على الاحداث مما يجعل المتلقّي قريبا من الحدث وكأنّه يتصوّره ويكون قريبا منه فعلا . وهذه المفردات والتعابير تعكس الواقع الاجتماعي للبيئة المكانية التي حدثت فيها أحداث القصّة.

اخي رفيق

سعيد حوراني

يمثل الكاتب سعيد الحوراني القصة القصيرة في اجمل صورها فهو صاحب السرد الواقعي ، القادر على رسم صورة الواقع السوري الريفي والمدني ويتقن رسم الشخصيات الحقيقية والواقعية بلغة سليمة وواقعية ، ويقوم بين الحين والاخر بتطعيم قصته بالألفاظ العامية والاشارات الدينية .

وتعد هذه القصة مثالا لنمو الوعي بالمجردات في اذهان الصغار ، فقد مرَّ الصبي بمراحل ثلاث:-

1- **المرحلة الاولى :-** رؤية سعيد للموت على انه شيء مجهول . (يقول سعيد في النص :- مات اخي .. ما معنى مات ....)
2- **المرحلة الثانية :-** اعتبار سعيد للموت بوابة للمتعة والتفرد وحيازة كل شيء ،)يقول سعيد :- ووقع نظري على برميل البريلكريم وفكرت حالا انه بقي لي الان لا ينازعني فيه منازع ، وكذلك ادوات الزينة التي كانت لأخي اصبحت لي الان ، وبذلالته الضخمة سأصغرها وافصلها جميعها لي . وشعرت بشيء من الارتياح ، فهو ليس مضطر لإرجاع

الليرة التي استدانها من اخيه ، والمدرسة لkي يذهب اليها الا بعد اسبوع ، وسيتخلص من الشيخ طالب وفلظته ، وعبدو افندى وسطرته ، وسأقضي هذه العطلة في البرية ، واذهب كل يوم لأنهب القرعون ، ولن تنتبه الي امي ، وهي مشغولة الان بموت اخي) .

3- **واخيراً المرحلة الثالثة :-** فهم سعيد للموت وحقيقة المتمثلة بالفقدان المادي والمعنوي . وقد انعكس ذلك في النص (لأول مرة شعرت بحزن شديد ، ففهمت بكاء امي واخوتي ، ولأول مرة ايضا طمرت راسي باللحاف ، وأخذت ابكي بصدق وعنف حتى انطفأت النجوم (أي حتى الصباح) .

يصور الكاتب في القصة طبيعة العائلة السورية الريفية لكنه ليس الريف البعيد ، وانما الريف القريب من المدن المسمى بالغوطة باللغة السورية .
يصور الكاتب بعض الخرافات التي يؤمن بها ابناء هذه المناطق . ومن الخرافات التي تؤمن بها العائلة موضوع الحجاب الذي يعتقدون انه يحمي من الاصابة بالامراض ، ومن نزيف الدم المتكرر ، الذي يلح على سعيد باستمرار . وهذه المعتقدات جاءت نتيجة تراكمات من الخرافات . (ام تحسين ستأتي وتريد ان تقرأ عليه وتضع عليه حجابا ، وامة التي تعتبر ان ام تحسين مباركة ..).

يصف الكاتب حياة الاطفال في ذلك الزمن وتلك المنطقة ، فهم يقضون جل وقتهم في البرية ، يقفزون ويرتعون بين الاشجار، وحتى يصلوا النهر والجسر المعلق فوقه ، مع ما يسببه كل ذلك من اتساخ الملابس وربما تلفها ، الا انه الطريق الاكثر إغراء للعب وجني الثمار "القرعون" .

- اللعب في بذور المشمش مع الرفاق (الحلال والحرام ، الزوج والفرد) .
- عدم فهم وادراك الاطفال لفكرة الموت بل ان سعيد في البداية رفضها ، وطلب الدليل على ذلك ، حيث ان اهتمام الناس واقرانه به اشعره بالزهو في نفسه .

نتعرف من خلال القصة على طبيعة العزاء واستقبال خير الوفاة في سورية .

وينعكس ذلك في النص من خلال :-

- النساء تنوح وتلطم .
- الناس يتجمهرون بباب الدار .
- حزن الناس جميعا ، ومن لم يحزن فلا بد ان يظهر الحزن مواساة لأهل الميت وتخفيفا من شدة احزانهم .

يعرض الكاتب طريقة تلقي **صدمة الموت في العائلة** ، وينعكس ذلك من خلال المظاهر التالية :-

- **الام :-** جازعة رافضة للقضاء . (فهي تقول الله لا يأخذ الا الطيبين الممتازين ، وتقول تهلك بالولد وتنعب به ، ونضع له دم قلوبنا ونفرش له ريف عيوبنا ، فإذا كبر وصار

،، قصف الله عمره ، هذا ظلم .. هذا ..) ثم قالت امي وهي نحول وتنظر ناحية الفراش :-

*يا ليتني اموت الان والحقك من الدنيا الملعونة هذه .

- **الاب:-** صابر مسلم بقضاء الله وقدره ، ويحاول الاخ عادل ان يشرح ويوضح البدائل التي كان على رفيق الاخذ بها لتجنب ما اصابه ، والاب مصر على ان القضاء لا بد له من الوقوع ، مهما كانت البدائل المتاحة له .

وينعكس ذلك السلوك من الاب في النص من خلال اقواله :-"قال ابي بصوت متهدج :- حكم الله ولا رد لقضائه " قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون " ... فقال ابي غاضباً :- "لا يا ام توفيق ، استغفري ربك ! اللهم لا اعتراض على حكمك " ... " فقال ابي كمن يتضعضع :- صلي ع النبي يا ام توفيق ، هذه حال الدنيا .. ان الله مع الصابرين ".

وهكذا نرى بين موقف الأم وموقف الاب من موت رفيق ، فارق كبير ، فهي مستمرة في الاعتراض على حكم الله عز وجل ، جازمة بأن الطيبين هم فقط يموتون .

الاشارات الدينية في القصة :- تكثر الاشارات الدينية في النص في محاولة لتقريب فكرة الموت والانتقال من حياة الى اخرى ، فاليوم هو الجمعة ، وهو لا يزال صغيرا ، كل ذلك يجعلك تستبشر له بخير في اخرته ".

اشارة الكاتب الى اوضاع التعليم :- يشير الكاتب باشارة خفية ذكية الى سوء الوضع التعليمي ، حيث يعتمد على الضرب في تقويم سلوك الطلاب ، وتقويم ما اعوج من تصرفاتهم وربما هذا هو سبب كره الطلاب للمدارس .

الاساليب الفنية :-

1) توظيف اسلوب الاستفهام :- هل تريد ان تذهب معي ؟ هل انت شجاع ؟ هل هو عصفور من الحية الان ؟
2) استخدام اسلوب النداء :- يا سعيد ، يا ام توفيق ، يا ام تحسين ، يا ابني ، يا ولدي ، يا عادل .
3) توظيف اسلوب الحوار :-
   1- الحوار الخارجي (الديالوج) : " قلت بعناء : لا طيب اذهب والبس حذائك ..."
   2- الحوار الداخلي (المونولج) : (لن يساعدني في حل مسائل الحساب ، وفكرت في المدرسة لا شك انني لن اذهب اليها الا بعد اسبوع ،...)
4) توظيف المحسنات البديعية :-

- الجناس :- هو لا يهوي
- الطباق :- الحرام , الحلال , الزوج –الفرد .

5) استخدام المحسنات البيانية :-

- الكناية :- قطبت امي جبينها : كناية عن الغضب

"انفها يلمع في وجهها المليء بالشمندري : كناية عن حمرة وجهها من شدة البكاء واللطم ، تضرب كفا بكف : كناية عن الحسرة والندم .

- التشبيه :- صفراء تبدو كالشيطان .
- الاستعارة :- احست اصابعه تغرق في شعري ".

6) توظيف الالفاظ العامية :- الصندل العتيق ، القرعون ، حزقة ، الدك ، (جسر) ، الضيجة (الحنفية)

7) استخدام ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب :- سأذهب انا (ضمير المتكلم) ، هي تريد (ضمير الغائب) هل انت شجاع (ضمير المخاطب) .

8) استخدام اسلوب النفي والنهي :-

نفي :- جيبه لا تتسع لبذر المشمش

نهي :- لا تبك يا حبيبي .

9) استخدام اسلوب السرد :- واجتمعت برفاقي لي في الطريق ، واخذنا طريقنا الى البرية ....

10)استخدام اسلوب التمني :- يا ليتني من قبلك ، يا ليتني اموت الان واتخلص من الدنيا الملعونة .

11)توظيف المضامين الدينية (اسلوب التناص) :-

"حكم الله ولا راد لقضائه" ، " قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا "، اللهم لا اعتراض على حكمك "،"صلى على النبي "،"ان الله مع الصابرين ".

اسئلة:

1. من هو كاتب نص "أخي رفيق" ثم أكتب نبذة عن حياته؟
2. ماذا يعتبر الكاتب حسب النص بأنه (راو, متدخل, مشاهد) ثم برهن ذلك؟
3. اكتب الشخصيات التي ذكرت في النص, ثم عين الشخصية المركزية منها؟
4. ما هو نوع هذا النص؟
5. ما هي ذروة التعقيد من هذا النص؟
6. لماذا لم يعجب الكاتب بالثوب الجديد الذي جلبته له أمه؟
7. ما سبب مجيء أم تحسين لبيت سعيد؟
8. بماذا شبه الكاتب يد أم تحسين؟
9. ما هدف ذهاب كل من سعيد ورفيق إلى البرية؟
10. أكتب كيف وصف سعيد أمه بعد أن سمع خبر موت أخيه؟
11. ماذا كان رد فعل أم سعيد عندما رأته ممزق الملابس, غارق في الوحل وحافي القدمين؟
12. ما هو سبب بكاء سعيد عندما ضمته أمه إلى صدرها؟
13. ما هو المنظر العجيب الذي رآه سعيد عندما ذهب إلى الفيجة؟
14. ماذا كانت الكومة البيضاء التي رآها سعيد على السرير؟
15. اذكر الكلمات التي قالتها أم سعيد والتي تغضب الله سبحانه وتعالى؟

16.ما هي الأشياء التي ربحها سعيد وأصبحت ملكه بعد موت أخيه؟
17.ما هي الأسباب التي جعلت سعيد يبكي في الفقرة الأخيرة؟
18.لمن يعود الضمير الذي تحته خط في الجمل التالية: